الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

١ — مع الراعي ...

وسلك سبيله في طريق وعر محفوف بالأشجار الباسقة إلى مأوى صديقه الراعي الشيخ الأمين، فوجده جالساً وحده في مدخل الحظيرة الشاسعة القائمة وسط المرج المعشوشب النضير. ولقد سورها يومايوس، إذ سيده غائب في أقصى الأرض، بسور عظيم ضخم من حجارة قوية نحتها من محجر قريب وجعل على السور فروعاً من قتاد وشوك وجذوعاً من سنديان، حتى صارت أمنع من عقاب الجو ... كل ذلك دون أن يساعده أحد ... ثم قسمها إثني عشر زَرْباً[1] جعل في كل منها خمسين خنزيرة كناز ... أما ذكران الخنازير فقد تركها سائبة في الخارج ليرسل منها إلى العشاق المعاميد ما يأكلون منه وما يريغون ... وقد بقي منها بعد تلك الأعوام الطوال ستون وثلثمائة. وربض لدى الباب كلاب أربعة كسباع البرية، تلحظ الحظيرة بأعين كالجمر؛ وجلس الراعي يعمل لنفسه نعالا من جلد ثور مدبوغ بينما انطلق خدمه ومعاونوه الأربعة يعملون ويدأبون هنا وهناك. وكان رابعهم على وشك أن يترك الحظائر إلى المدينة، حاملا لحم خنزير حنيذ يذهب به برغمه إلى العشاق القساق. ولمحت الكلاب أودسيوس فأهرعت إليه، وظلت تعوى وتنبح، وترغى وتزبد، وأوشكت أن تفتك به، لولا أن هب يومايوس فكسر شرتها بما رماها به من الحجارة، ولولا أن ترك أودسيوس عكازه يسقط من يده لأن الكلاب لا يغيظها إلا أن يمسك لها أحد عكازاً..

قال الراعي: «أيها اللاجيء العجوز سلمت! خطوة واحدة، وكانت هذه الكلاب قد مزقتك إرباً، وكانت لحقت بي سبة لا تبيد! ألا كم ترسل عليّ الآلهة من كروب! وكم ترميني به من آلام! أنا، هذا العجوز الهالك، الذي أمضني الحزن، وشفني الأسى من أجل سيدي ومولاي! هأنذا أسمن قطعانه وأرعاها لينعم بها غيره، بينما هو نازح غريب يجوب الآفاق ويشتهي كسرة يتبلغ بها، إن كان ما يزال حياً يرزق: أوه! تعال أيها الصديق، هلم اتبعني إلى داري أطعمك ما تيسر، وأسقك كفايتك من الخمر، وتخبرني بعدها من أنت، ومن أين أقبلت وماذا وراءك:» وانطلقا، وقدم إليه الراعي الكريم حشيته التي كان يجلس عليها، والتي نحتها من جلد عنز حشاه بالقش؛ فشكره أوديسيوس ودعا له بما يحب وبكل ما تصبو إليه نفسه. فقال الراعي

(١) الزرب: الزريبة للغنم

يجيبه : « أيها الصديق ، ليس أمقت إلى من أن أذود لاجئاً إلى داري وإن يكن أرث منك حالا ، لأن أبناء السبيل جميعاً هم ضيوف زيوس رب الأرباب وأنا مع ذاك أعتذر إليك إذا لحظت أن زادي قليل وأن حالي رقيقة فلقد مضى زمن العز والعيش الواسع المخفرج وأصبحنا نعاني القُلّ والفاقة والعيش النكد تحت إمرة هؤلاء الرؤساء الأصاغر . آه يا مولاي يا زين الحياة ومؤدب الناس أين أنت ؟ أين أبلك وخيرك الوفر ؟ ليتها دامت ، وليتك ظللت فعشنا في كنفك ... وليت هيلين وكل من في بيت هيلين فداؤك ... هيلين التي قتلت سادات هيلاس [1] الذين أبحروا معَ أجاممنون ليفيلوه النصر في ميدان طروادة ! » . ثم لم دثاره وذهب إلى الزرب الأول فجاء بخنزيرتين سمينتين فقتلهما وذبحهما وسلخ جلديهما ، وجعلهما إرْبا إرْبا ؛ ثم أشعل ناراً عظيمة فسوّى على جمرها السفافيد المثقلة باللحم ، وجاء بالشواء فوضعه أمام أوديسيوس ، ثم نثر عليه من الدقيق ، وأحضر زق الخمر ، وجلس قبالته وقال : « هلم يا ضيق العزيز فكل وارْوَ ... لا تؤاخذني إذا رأيت الشواء لا سميناً ولا حنيذاً ، فكل سمين وحنيذ يذبح أولاً فأولاً ويرسل إلى العشاق السفلة الذين لا يرعون في الآلهة إلاّ ولا ذمة ، ولا يخافون سماء ولا بَشرا ... يالله من هؤلاء الفجرة ... ألا يلمون شعثهم ويغيرون بخيلهم ورجلهم على بلد قاص فيثوبوا بأسلاب الغزو وسخط الآلهة ؟ أم تراهم أوحى إليهم بموت مولاي فهم ههنا قائمون ما يريمون ولزاده آكلون ومن خمره شاربون ، حتى فرغت الجرار ، وخَوَت الدار ، وضَؤل الزرع وجف الضرع ! ! أبداً ما ملك أحد مثل ما ملك مولاي ! لقد كانت ثروته تعدل ما يملك عشرة أو عشرون أميراً ؛ وما أزال أذكر مما ملكت يداه اثني عشر قطيعاً من الأنعام كانت ترعى العشب في مروج الشاطىء [1] المقابل ، وكثيراً من قطعان الأغنام وأرعال [2] الخنازير وأسراب الماعز ، عليها أجراء وخدم ورعاة لا يحصون ، ورجال مخلصون يزرعون في حقوله الشاسعة ويحصدون ، ورجال يجلبون من قطعانه كل كناز للذبح ... أما أنا ... فقد عهد إليّ بهذه الأرعال التي ترى ، أطعمها وأعنى بها ، و ... وا أسفاه ! وأرسل إلى العشاق كل يوم بخيارها »

وصمت الراعي بينما كان أودسيوس يصغي ويلتهم طعامه ويفكر ألف فكرة ، ويدبر ألف تدبير لسحق هؤلاء العشاق المفاليك . حتى إذا انتهى ، قدم إليه يومايوس كأسه دهاقا ، فتقبلها وشرب ما فيها وقال : « ترى ما ذا كان اسم سيدك أيها الصديق ؟ لا بد أنه كان مشهوراً ذا ذكر ، لما وصفت من واسع ثرائه وسمو جاهه وبسطة ملكه . لقد قلت إنه ذهب إلى طروادة مع أجاممنون ، فهل تتفضل فتذكر لي اسمه عسى أن أقص عليك من أنبائه ؟ لقد ذهبت أنا الآخر ثمة ، وسافرت في بلادشتى ، ومحال ألا أعرف العظماء الذين جاهدوا مع أجاممنون . » فأجابه الراعي : « وا أسفاه أيها الأخ العجوز ! أبداً لا تنطلي الأنباء الملفقة عن

(١) اليونان وتسمى أقايا أيضا

(١) لعله شاطئ آسيا

(٢) جمع رعيل ويجمع على رعال وأراعيل وهو في الأصل للخيل والبقر

مولاى على زوجه أو ولده ؟ فكم من جواب آفاق مثلك ، محتاج إلى لقمات أو سروال ، قد لقى الزوجة المسكينة فلفق لها قصصاً مكذوباً عن رجلها ثم دلت الأيام على كذبه وزخرفه ، والزوجة فى كل ما تسمع تذرف الدموع وتصعد الآهات كأحسن ما تصنع زوجة وفية من أجل زوجها الذى قضى فى بلد بعيد . وأكبر ظنى أنك تطمع فى كساء تخلعه عليك هذه الزوجة المفئودة الرءوم ، فأربع عليك ، فالرجل قد قضى ، وليس بعيداً أن تكون كلاب البرية وسباعها قد اغتذت به ، أو أنه قد غرق فأكله السمك ، ولفظت عظامه على سيف البحر لتذروها الرياح ، تاركاً وراءه قلوباً تأسى عليه ، أحزنها عليه قلبى . تالله ما وددت أن أرى أبوى اللذين غادرتهما منذ أحقاب كما أتشوف اليوم إلى رؤية هذا الرجل ... آه يا أودسيوس ! أين أنت ... إنك مهما شطت النوى وشحطت الدار فلن أبرح أذكرك وأسبح باسمك وأوقرك ، بما أحسنت إلى وعنيت بشأنى ، يا من فراقك عندى آلم لى من فراق أعز إخوتى وأشقائى !»

وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق لم تيأس من عودة مولاك هكذا ؟ ولم يخامرك الشك في أن رجوعه محتوم لا ريب فيه ؟ إذن فأنا أقسم لك قسماً لا أحنث فيه أنه عائد لا محالة ، ومعاذ الآلهة أن أقسم وأؤكد الأيمان لأنال القميص الذي ذكرت أو الدثار الذى أنا في شدة الحاجة إليه ، بل ليبق القميص والدثار حتى يتحقق قسمى وتبر يمينى فأتسلمها منك ، فإنى أمقت الكاذب الخائن فى يمينه كما أمقت أبواب الجحيم ، والله على ما أقول وكيل ... إطمئن إذن ياصاح ، وثق أن أوديسيوس لابد عائد هذه السنة إلى إيثاكا بل ربما عاد هذا الشهر ، ولن يمضى شهر آخر حتي يكون قد ثأر لعرضه من أعدائه وبطش بهم جميعاً ... أولئك الفجرة الأشرار الذين جسروا على استباحة حماه ، وإهانة زوجه ، وعدم المبالاة بولده ! »

وسخر الراعى وقال : « أهكذا تقسم وتؤكد القسم ياصاح ؟ أبداً لن تنال الرهان أبداً ، فقد أودى أوديسيوس ولن يعود بعد ... هلم هلم تحسُ كأسك الروية ودع هذا الحديث فإنه يحزننى ويثير شجونى ... خلّ قسمك ، وليقدم أوديسيوس فى خيالك أو فى الحقيقة ، فأنا وزوجه وأبوه وولده ... كلنا نشتهى ذلك ، ونتمناه على الآلهة ... ياويح لك ياتليماك الحبيب ! لقد كنت أرقص طرباً كلما رأيتك تنبت كما نبت أبوك ، وتشب على الفضائل التى شب عليها ! أين أنت ؟ لقد ذهبت إلى ملك بيلوس تتجسس أخبار أبيك ، وها هم العشاق يترصدونك ويتربصون بك ليغتالوك فى الطريق . ألا طاشت أحلامهم ، وحماك جوف الأعظم من مكرهم ، وحفظك لبيت أرسسياس يا أعز الناس ... ؟ ولكن تعال أيها الضيف الكريم ... قل لى بربك واصدقنى فى كل ماتقول : من أنت ، ومن أين أقبلت ، وفيم قدمت ؟ وما بلدك ؟ وأين يقيم أبواك ؟ وأى سفينة حملتك إلى شاطئنا ؟ فلعمرى إنك لن تدعى أنك وصلت إلينا سائراً على قدميك ! »

فقال أوديسيوس يجيبه : « سأقص عليك من أنبائى التى لايأتيها الباطل مالو لبثت عندك عاماً بين هذه الخمر وذاك الطعام ، بينما يكد الآخرون من

أجلنا ويجهدون ، مافرغت من قصها عليك ... فهي أنباء باكية وآلام متصلة ، شاءت السماء أن أقاسيها ، وأن أجرع غصصها ... إذن أنا ابن كاستور هيلاسيد أحد سراة كريت ، من سُرِّيته المحبوبة التي كان يعزها كزوجه . ولم يكن أبي يفرق بيني وبين إخوتي من زوجه ، بل كان يولينا حبه على السواء ، وكان الناس يبجلونه كأحد آلهتهم لثرائه الواسع ، وحسبه الضخم ، ولأعماله الناجحة ؛ فلما مات اقتسم أبناؤه كل ماترك ، وكان نصيبي منزلاً متواضعاً ، ومالاً كثيراً ، وزوجة غنية ذات مال وجمال . ولم يحاول إخوتي أن يَدُعُّوني أو يأكلوا ترائي ، لما كنت عليه من كريم الخصال وحميد الفعال ، وجمال المنظر ووسامة المظهر — لا كما تراني الآن — وا أسفاً على مافات من نضارة الشباب ! تالله لن تستطيع ، ولن يستطيع أحد ، أن يحدس كم شقيت وكم بُليت ، وكم من الآلام والضنك وأوضار الحياة تحملت ؟ فلقد كنت لا أرهب الردى ، وكنت دائماً أخوض خبار المعامع في حمى مارس وميزفا فأشك قلوب الأعادى وأبهر القادة والزعماء بجلائل الأعمال ... ولم يكن من دأبي أن أشغل نفسي بأكلاف البيوت ومشاغل الحياة المعاشية الدنيا ، التي هي بالاحداث والغلمان أولى ، ، بل كنت مشغوفاً أبداً بركوب البحار وخوض غمار الوغى ، وملاعبة الأسنة ، وما إلى ذلك مما جعلته السماء غراماً وفرحاً لي ، وضراماً ولزعاً في فؤاد سواى — والناس كما تعلم فيما يعشقون مذاهب ... ولست أرسل القول على عواهنه ، فلقد قدت إلى طروادة تسعة جيوش ظفرت بفيالقها قبل هذه الحرب الضروس الأخيرة بينها وبين هيلاس ... ولقد حزت الثراء الجم والغنى الوافر من جراء هذه الحروب ، فأصبحت بين شعب كريت المفضل المبجل ... ثم كانت الحرب الأخيرة التي قتل بسببها مئات من السادة الصناديد من رجال الإغريق ، فاختاروني أنا وصاحبي إيدومين قائدين للأساطيل ... ثم حاربنا حول طروادة تسع سنين حافلات مُثقلات ، وفي العاشرة سقطت المدينة في أيدينا ، وعدنا أدراجنا نطوي اليم لا ندري ماذا خبأت لنا المقادير ؛ ومن ثمة بدأ چوڤ يرسل صيباً من الرزايا فوق رأسي ، حتى إذا وصلت إلى كريت سالماً لم ألبث طويلا هناك ، ولم أمتع النفس بالأهل والوطن إلا شهراً واحداً ؛ ثم أقلعت في نخبة من رفاق بأسطولنا إلى مصر بعد أن أولمت لهم وقربت القرابين . وقد أرسلت العناية لنا ريحاً جرت بسفننا رخاء ، كأنما أبحرنا مع تيار نهر لا جبار ولا عنيد ، ولم يحدث لأي من جوارينا سوء حتى بلغنا شطئان مصر في اليوم الخامس ، واتخذت سفننا سبيلها في النيل عجباً ... ثم حدث ما لم أود أن يحدث ، إذ سطا رجالي بعد خُلْف في الرأي وشجار بينهم عنيف على حقول الفلاحين فاستاقوا أنعامهم وسبوا نساءهم ، واسترقوا أطفالهم ثم ذبحوا رجالهم ... بيد أنهم لم يسلموا مع ذلك من شر المصريين ! إذ استيقظت المدينة على صراخ الجرحى وأنين القتلى وتصويت النساء فأقبل أهلها كالجراد ، بين فارس وراجل ، وكل يحمل السيف